ذكريات شاعر

ستظل الكلمة الصادقة خير معبر عما في قلب الإنسان ، ولقد أنعم الله على أمة العرب بنعمة القول ، وفصاحة الإنسان ، فأكرمهم بنزول القرآن ، ليكون المرجع الأسمى ، والمصدر الأوفى .

وما أجمل ما قالت العرب تصويرًا لحياتهم ، وتعبيرًا عن دخائلهم ، ومكنون مشاعرهم .

وقد كان البارودي شاعر السيف والقلم صادق المشاعر ، يمتلك ناصية البيان واسع الثقافة موفور الخبرة ، فجاء شعره صدى لشخصيته ، معبرًا بصدق عن أحاسيسه الفياضة ، فظل معينا خالدا تتغنى به الأجيال وتطرب .

ولنقرأ معا هذا النص الحليب يحن فيه الشاعر ويشتاق لأيام الصبا ، وعهد الشباب الذي ولى بغير رجوع ، ويجتر آلام النأي ، ولواعج الشوق والتغرب في منفاه الموحش في سرنديب ، يقول :

ردوا عليَّ الصبا منْ عصريَ الخالي

ردوا على الصبا من عصري الخالي ... وهل يعود سواد اللمة البالي ؟

ماض من العيش ما لاحت مخايله ... في صفحة الفكر إلا هاج بلبالي

سلت قلوب؛ فقرت في مضاجعها ... بعد الحنين وقلبي ليس بالسالي

لم يدر من بات مسرورا بلذته ... أني بنار الأسى من هجره صالي

يا غاضبينَ علينا ! هلْ إلى عدة ... بالوصلِ يومٌ أناغي فيهِ إقبالي

غِبْتُمْ؛ فَأظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ ... وَساءَ صنعُ الليالي بعدَ إجمالِ

قَدْ كُنْتُ أحْسِبُنِي مِنْكُمْ عَلى ثِقَةٍ ... حتَّ ، منيتُ بما لمْ يجرِ في بالي

لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أَسْتَحِقُّ بِهِ ... عتباً ، ولكنها تحريفُ أقوالِ
وَ منْ أطاعَ رواةَ السوءِ – نفرهُ ... عَنِ الصَّديقِ سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ
أدهى المصائبِ غدرٌ قبلهُ ثقةٌ ... وَأَقبَحُ الظُّلْمِ صدٌّ بَعْدَ إِقْبَالِ

****

لا عيبَ فيَّ سوى حريةٍ ملكتْ ... أعنتي عنْ قبولِ الذلِّ بالمالِ
تبعتُ خطةَ آبائي ؛ فسرتُ بها ... عَلَى وَتِيرَةِ آدَابٍ وَآسَالِ
فَمَا يَمُرُّ خَيَالُ الْغَدْرِ فِي خَلَدِي ... وَلاَ تَلُوحُ سِمَاتُ الشَّرِّ فِي خَالِي
قلبي سليمٌ ، ونفسي حرةٌ رَبِدي ... مأمونةٌ ، ولساني غيرُ ختالِ
لكنني في زَمَانٍ عِشْتُ مُغْتَرِباً ... في أهلهِ حينَ قلتُ فيهِ أمثالي
بَلَوْتُ دَهْرِي؛ فَمَا أَحْمَدْتُ سِيرَتَهُ ... في سابقٍ من لياليهِ ، وَ لاَ تَالِي
حَلَبتُ شطْرَيْهِ: منْ يُسرٍ ، وَمَعْسُرَةٍ ... وَذُقْتُ طَعْمَيهِ: منْ خِصبٍ، وَإِمْحَالِ
فَمَا أَسِفْتُ لِبُؤْسٍ بَعْدَ مَقْدُرَةٍ ... وَلاَ فرحتُ بوفرٍ بعدَ إقلالِ
عَفَافَةٌ نَزَّهَتْ نَفْسِي؛ فَمَا عَلِقَتْ ... بلوثةٍ منْ غبارِ الذمِّ أذيالي
فاليومَ لا رسني طوعُ القيادِ ، ولاَ ... قَلْبِي إِلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَا بِمَيَّالِ
لَمْ يَبْقَ لِي أَرَبٌ فِي لُدْهَرِ أَطْلُبُهُ ... إلاَّ صحابةُ حرٍّ صادقِ الخالِ
وَأَيْنَ أُدْرِكُ مَا أَبْغِيهِ مِنْ وَطَرٍ ... والصدقُ في الدهر أعيا كلَّ محتالِ ؟

****

لا في " سرنديبَ " لي إلفٌ أجانبهُ ... فضلَ الحديثِ وَلاَ خلٌّ ؛ فيرعى لي
أبيتُ منفرداً في رأسِ شاهقةٍ ... مثلَ القطاميِّ فوقَ المربإِ العالي
إذا تلفتُّ لمْ أبصرْ سوى صورٍ ... في الذِّهْنِ، يَرْسُمُها نَقَّاشُ آمالي
تهفو بيَ الريحُ أحياناً ، ويلحفني ... بردُ الظلالِ ببردٍ منهُ أسمالِ
فَفِي السَّمَاءِ غُيُومٌ ذَاتُ أَرْوِقَةٍ ... وفي الفضاءِ سيولٌ ذاتُ أَوْشَالِ

كَأَنَّ قَوْسَ الْغَمَامِ الْغُرِّ قَنْطَرَةٌ ... معقودةٌ فوقَ طامي الماءِ سيالِ
إذا الشعاعُ تراءى خلفها نشرتْ ... بَدَائِعاً ذاتَ أَلْوَانٍ وَأَشْكَالِ
فَلَوْ تَرَانِي وَبُرْدِي بِالنَّدَى لَثِقٌ ... لخلتني فرخَ طيرٍ بينَ أدغالِ
غَالَ الرُّدَى أَبَوَيْهِ ؛ فَهْوَ مُنْقَطِعٌ ... فِي جَوْفِ غَيْنَاءَ، لاَ رَاعٍ، وَلاَ وَالِي
أَزيغبَ الرأس ، لمْ يبدُ الشكيرُ بهِ ... ولمْ يصنْ نفسهُ منْ كيدِ مغتالِ
كَأَنَّهُ كُرَةٌ مَلْسَاءُ مِنْ أَدَمٍ ... خَفِيَّةُ الدَّرْزِ، قَدْ عُلْتْ بِجِرْيَالِ
يظلُّ في نصبٍ ، حرانَ ، مرتقباً ... نَقْعَ الصَّدَى بَيْنَ أَسْحَارٍ وآصَالِ
يكادُ صوتُ البزاةِ القمرِ يقذفه ... منْ وَكْرِهِ بَيْنَ هابِي التُّرْبِ جَوَّالِ
لا يستطيعُ انطلاقاً منْ غيابتهِ ... كأنما هوَ معقولٌ بعقالِ
فذاكَ مثلي ، وَ لمْ أَظلمْ ، وربتما ... فضلتهُ بجوى حزنٍ ، وإعوالِ
شَوْقٌ، وَنَأْيٌ، وَتَبْرِيحٌ ، وَمَعْتَبَةٌ ... يا للحميةِ منْ غدرٍ وإهمالِ

°°°°°°°°°°°°

أصبحتُ لا أستطيعُ الثوبَ أسحبهُ ... وَقَدْ أَكونُ وَضافِي الدِّرْعِ سِرْبَالِي
وَ لاَ تكادُ يدي تدنو شبا قلمي ... وَكَانَ طَوْعَ بَنَانِي كُلُّ عَسَّالِ
فَإِنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ نَضْرَتِهِ ... فَالدَّهْرُ مَصْدَرُ إِنْبَارٍ وَإِقْبَالِ
وَإِنْ غَدَوْتُ كَرِيمَ الْعَمِّ وَالْخَالِ ... بصدقِ ما كانَ منْ وسمي وإغفالي
راجعتُ فهرسَ آثاري فما لمحتْ ... بصيرتي فيهِ ما يزري بأعمالي
فَكَيْفَ يُنْكِرُ قَوْمِي فَضْلَ بَادِرَتِي ... وَقَدْ سَرَتْ حِكَمِي فيهِمْ، وَأَمْثَالِي؟
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار بهِ ... وإنْ غدوتُ كريمَ القسمِ وَالخالِ
ولي منَ الشعرِ آياتٌ مُفَصَّلَةٌ ... تلوحُ في وجنةِ الأيامِ كالخالِ
ينسى لها الفاقدُ المحزونُ لوعتهُ ... ويهتدي بسناها كلُّ قوالِ
فانظرْ لقولي تجدْ نفسي مصورة ... في صَفْحَتَيْهِ؛ فَقَوْلِي خَطُّ تِمْثَالِي

ولاَ تغرنكَ فـي الـدنيا مشـاكلة بينَ الأنام ؛ فليسَ النبعُ كالضالِ
إنَّ ابْـنَ آدَمَ لَـوْلاَ عَقْلُـهُ شَـبَحٌ مُـرَكَّبٌ منْ عظَامٍ ذَاتِ أوْصَالِ

****

نركز في هذه الأبيات على نقطتين مهمتين بارزتين في شعر البارودي ،

هذا النبع الثر الفياض من الحكم الذي أنتجته تجربته الواسعة ، كقوله :

وَ منْ أطاعَ رواةَ السوء – نفـرهُ عَـنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ القِيلِ وَالقَالِ

وقوله :

أدهى المصائبِ غـدرٌ قـبلهُ ثـقة وَأقْـبَحُ الظُّلْمِ صَدٌّ بَعْـدَ إقْـبَالِ

وقوله :

فَإنْ يكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ نَضْـرَتِهِ فَالدَّهْـرُ مَصْـدَرُ إدْبَارٍ وَإقْبَالِ

وقوله :

ولاَ تغرنكَ فـي الـدنيا مشـاكلة بِينَ الأنام ؛ فليسَ النبعُ كالضالِ

وقوله

إنَّ ابْـنَ آدَمَ لَـوْلاَ عَقْلُـهُ شَـبَحٌ مُـرَكَّبٌ منْ عظَامٍ ذَاتِ أوْصَالِ

وهذه الصياغة القوية الجزلة التي نلمحها في مفرداته وجمله مثل قوله :

أدهـى المصـائبِ غـدرٌ قـبلهُ ثقـة

وقوله :

أَقْـبَحُ الظُّـلْمِ صَـدٌّ بَعْـدَ إقْـبَالِ

وقوله :

فَمَا أسِفْتُ لِبُؤْسٍ بَعْـدَ مَقْـدُرَةٍ وَ لاَ فرحتُ بوفـرٍ بعدَ إقـلالِ

وقوله :

فإنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ نَضْـرَتِهِ فَالدَّهْـرُ مَصْـدَرُ إدْبَارٍ وَإقْـبَالِ

أما المقدمة الغزلية ففيها رقة الفارس ، وإحساس المحب ، ولواعج الشوق ونيران الأسى ، وعفة العربي ، وصفاء قريحته **وانظر مرة أخرى إلى هذه المقدمة الغزلية :**

ردوا على الصبا من عصري الخالي وهل يعود سـواد اللمة البالي ؟

ماض من العيش ما لاحت مخايله في صفحة الفكر إلا هاج بلبالي

سلت قلوب؛ فـقرت في مضاجعها بعد الحنين وقلبي ليس بالسـالي

لم يدر مـن بات مسرورا بـلذته أني بنار الأسى من هجره صالي

****

يا غاضبينَ علينا ! هلْ إلى عـدة بالوصـلِ يـومٌ أناغـي فيهِ إقبالي

غِـبْتُمْ؛ فَأظْلَمَ يَوْمِي بَعدَ فُـرْقَتِكُمْ وَ ساءَ صنعُ الليالي بعدَ إجمـالِ

قَدْ كُنْتُ أحْسِبُني مِنْكُمْ على ثِقَـة حتى منيتُ بما لمْ يجـرِ في بالي

لَمْ أجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أسْـتَحِقُّ بِهِ عتباً ، ولكنها تحـريفُ أقـوالِ

****

رحم الله البارودي فارس السيف والقلم .